لمناسبة تتويج الفاروق

خواطر تاريخية ودستورية

عن رسوم التتويج والتولية

للأستاذ محمد عبد الله عنان

تستقبل مصر بعد يومين حادثاً من أعظم الحوادث فى تاريخها الحديث هو الاحتفال « بتتويج » جلالة مليكها فاروق الأول ، أو بالحرى ببلوغ المليك رشده الدستورى وتوليه مقاليد الشئون ، وافتتاح عهده السعيد فى ظل الاستقلال والحريات الدستورية ؛ ويلاحظ ان هذا الحادث الذى هو الأول من نوعه في تاريخنا الحديث ، سوف ينشىء سابقة دستورية ينسج على منوالها ، وسوف يكون هو الحجر الأول فى صرح تقاليد الملوكية المصرية الدستورية

ولقد كان للملوكية المصرية فى عصور الاستقلال والمجد رسوم وتقاليد مؤثلة ؛ وكانت رسوم البيعة والتولية من أعظمها وأعرقها ، وكانت تتشح بألوان ساحرة من الفخامة والبهاء ، وتعتبر من الحوادث القومية الجليلة ؛ ولو لم تنكب مصر بمحنة الفتح العثمانى فى سنة ١٥١٧ ، وينهار بذلك صرح استقلالها وملوكيتها التالدة ، لكان عرش مصر اليوم أقدم عروش العالم وأعرقها

فالحادث العظيم الذى تستقبله مصر فى الغد يعتبر من الوجهة التاريخية ذا أهمية خاصة فى تاريخها : أولاً لأنه يصل ماضى الملوكية المصرية المستقلة بحاضرها بعد أن انقطع سيرها زهاء أربعة قرون ؛ وثانياً لأنه يفتتح عهد الملوكية الدستورية فى عصر الاستقلال ؛ وهذا المعنى التاريخى المزدوج هو الذى يسبغ على تتويج مليك مصر الشاب خطورة قومية ودستورية ذات شأن

وسوف تتخذ اجراءات التتويج هنا صفة رمزية معنوية ، فليس هناك تتويج بالمعنى الحقيقى ، وليس لمصر الحديثة تاج موروث أو آلات وأزياء ملوكية خاصة يتقلدها المليك عند توليته ؛ وانما هنالك اجراء دستورى خطير هو فى الواقع أسمى مظهر يبدو به الملك الدستورى لأمته ، وأقدس عهد يقطعه لها حين تقلده لأمورها ؛ وهذا الاجراء هو أداء الملك لليمين التى نص عليها الدستور فى مادته الخمسين ، وذلك أمام البرلمان مجتمعاً بمجلسيه فى هيئة مؤتمر ونصها : « أحلف بالله العظيم انى أحترم الدستور وقوانين الأمة المصرية وأحافظ على استقلال الوطن وسلامة أراضيه » ؛ وسيتلو هذا الاجراء الخطير عدة حفلات واستقبالات عظيمة يتاح فيها للأمة أن تبدى عميق حبها وولائها لمليكها ، ويستعرض فيها الجيش المصرى الذى تؤمل مصر أن يستعيد فى المستقبل القريب مجده العسكرى التالد ، ويغدو حصنها المكين ، وحامى حمى استقلالها وذمارها

وإذا كان « تتويج » الفاروق سيقتصر على ثلاثة اجراءات ومظاهر رئيسية ، هى أداء اليمين الدستورية يوم الخميس القادم ، فأداء صلاة الجمعة فى اليوم التالى فى مسجد الرفاعى ، ثم استعراض الجيش فى اليوم الثالث ؛ فان هذا البرنامج على بساطته المؤثرة يحتوى جميع العناصر القومية والشعبية التى تأخذ بها جميع القصور والأمم العريقة ، بل والتى عرفتها الملوكية المصرية فى ظل الدولة الاسلامية ؛ ذلك أن تبادل العهد بين العرش والأمة عن طريق اليمين الدستورية التى يؤديها جلالة الملك أمام ممثلى الأمة ، والتى هى معقد رسوم التولية ، ليست فى الواقع إلا مظهراً جديداً من مظاهر نظام البيعة القديم تطور مع الزمن طبقاً لتطور الفكرة الدستورية ؛ ففى العصور الوسطى كانت الخلافة أو العرش مصدر السلطات الروحية والزمنية ، وكانت البيعة تعقد للخليفة أو صاحب العرش بهذه الصفة ؛ أما اليوم فان الأمة تغدو فى ظل النظم الدستورية هي مصدر السلطات ، ويغدو العرش رمزها الأسمى ، وهي التى يدين لها الجميع بالولاء

أما التتويج بصورته الشكلية المعروفة عند ملوك النصرانية من وضع التاج على رأس الملك الجديد فى حفل دينى على الأغلب فلم يتبع دائماً فى الدول المصرية الاسلامية ، ولم يتبع إلا فى دولة الخلفاء الفاطميين ، فقد كان لخلفاء هذه الدولة ضمن آلات الملك تاج من الجوهر الثمين يعرف بالتاج الشريف وبه جوهرة عظيمة تعرف

باليتيمة ومن حولها جواهر دونها ، وله موظف خاص يوكل بوضعه على رأس الخليفة فى المواكب والأيام العظام يعرف « بمتولى شد التاج » . أما الدول التى تلتها كالدولة الأيوبيـة ، ودولة المماليك البحرية ، ثم دول السلاطين الشراكسة ، فلم يكن التاج بين الآلات الملوكية التى اختصت بها ، بل كان أهمها العرش (أو سرير الملك) وكان سلاطين هذه الدول يضعون على رؤوسهم أيام التولية طرحة سوداء مرقومة بالبياض ، أو عمامة سوداء مرقومة بالبياض ، تنويهاً بشعار الخلافة العباسية القديمة وهو السواد ، وقد كانت هذه الدول تنضوى من الوجهة الروحية تحت لواء الخلافة العباسية الذاهبة ، على أنه لم يكن سوى انضواء شكلى فقط

ثم إن الحفلات القوميـة التقليدية كانت فى هذه المناسبات العظيمة تحتوى دائماً على العنصر العسكرى ، وعلى بعض المظاهر الدينية ؛ فكانت مواكب الخلفاء فى الدولة الفاطمية تمتاز بروعة عسكرية ، وكان يحف بالخليفة الجديد وينتظم فى ركبه صفوة القادة والضباط والجند فى أثواب وأزياء باهرة ، ويشق هذا الركب الخلافى العسكرى الفخم مدينة القاهرة فيعرض على أنظار الشعب المعجب طرفاً من قوة الدولة والجيش ؛ وكانت مواكب السلاطين فيما بعد تمتاز أيام التولية أيضاً بهذا الطابع العسكرى الفخم ؛ وما زال الطابع العسكرى فى عصرنا أعظم مظهر للمواكب المشهودة فى أرقى الدول وأعظمها

أما المظاهر الدينية فقد كانت تتخذ مكانتها دائماً فى المواكب الخلافية والسلطانية ، وكانت فى ظل الدولة الفاطمية أشد ظهوراً وتمكناً منها فى أية دولة مصرية أخرى ؛ ذلك لأن الدولة الفاطمية كانت خلافة مذهبية وكانت الإمامة الدينية شعارها ، وكان الخليفة يجمع بين يديه جميع السلطات الدينية والزمنيـة ؛ وكانت مواكب السلاطين تحتوى أيضاً مثل هـذا الطابع الدينى ؛ بيد أنه يجب أن نفرق بين هذه المظاهر التى كانت تتفق من الوجهة الشكلية مع روح العصر ، وبين مسألة أخرى هي مدى مثول العنصر الدينى فى تولية الخلفاء والسلاطين المصريين. وقد أثيرت هـذه المسألة أخيراً لمناسبة تتويج جلالة الملك فاروق ، ورأى بعضهم أن تجرى إلى جانب الحفلة الدستورية حفلة دينيـة فى أحد مساجد القاهرة يتلو فيها شيخ الأزهر على جلالته صيغاً معينة يجيب عنها جلالته بما يناسبها ، فيكون هـذا بمثابة تتويج دينى لجلالته إلى جانب التتويج المدنى ؛ وكانت حجة هؤلاء أن مصر دولة إسلامية دينها الرسمي الاسلام ؛ وقد اعترض على هـذا الاجراء بحق بأنه ينافى الأوضاع الدستورية ويخلق فى الدولة سلطة روحية لا وجود لها ؛ على أننا نزيد هنا أن هذا الاجراء لم تعرفه القصور المصرية فيما عرفت من رسومها وتقاليدها ، ولم يحدث قط فى تاريخ مصر الاسلامية ، أن تلقى خليفة أو سلطان عهداً أو تفويضاً من زعيم دينى سواء أكان قاضى القضاة أم شيخ الأزهر ، ولم يتلق السلاطين مثل هذا التفويض إلا من الخليفة العباسى ، الذى أقاموه هم بمصر بعد سقوط الخلافة العباسية فى بغداد ليتخذوا من لوائها أداة من أدوات السياسة . بيد أنه كان إجراء شكلياً فقط ؛ كذلك لم يحدث قط فى تاريخ مصر الاسلامية أن توج خليفة وسلطان فى مسجد من المساجد ، بل كان التتويج يجرى دائماً في مقر الملك ، فى القصر الفاطمي أيام الدولة الفاطمية ، وفى دار الوزارة الكبرى ثم فى قصر القلعة أيام الدولة الأيوبية والدول التى تلتها ؛ أما العناصر والمظاهر الدينية فى حفلات تولية الخلفاء والسلاطين فكانت تلخص فيما يلى : مثول قاضى القضاة وأكابر العلماء إلى جانب أقطاب الهيئات العسكرية والمدنيـة الأخرى ، فى حفل التولية ، وفى الموكب الملكي ؛ وأداء الخليفة لصلاة العيد أو الجمعة فى الجامع الأزهر أو جامع عمرو أو جامع الحاكم أو غيرها من المساجد الجامعة ؛ ولم يظهر نفوذ رجال الدين فى مسائل العرش والتولية إلا فى أواخر دولة الملوك الشراكسة حيث كان للعلماء والقضاة الأربعة نفوذ يذكر فى تولية بعض السلاطين وعزلهم وتقرير رشدهم ؛ بيد أن هذا النفوذ كان عارضاً يرجع إلى أحوال الدولة المصرية والمجتمع المصرى يومئذ ؛ ولم يكن من العوامل الأساسية فى مسائل العرش والتولية .

والواقع أن إجراء رسوم التتويج بالمسجد هو أقرب إلى الشعائر الوثنية والنصرانية ، والكنيسة تؤدى مثل هذا الدور الذى يراد أن يؤديه المسجد — فى الأمم النصرانية ؛ وقد شهدنا هذا المنظر فى تتويج جلالة ملك انكلترا حيث جرى تتويجه فى

الكنيسة وتلا عليه مطران كنتربرى صيغاً معينة أجاب عليها ؛ ومع أن الدول الأوربية قد تحررت منذ بعيد من سلطان الكنيسة فان هذه الاجراءات ماتزال تمثل فى الاحتفالات القومية الكبرى كالتتويج وغيره ، فنرى الأمبراطور نابوليون بونابرت مثلا يجوز رسوم التتويج فى كنيسة الأنفاليد فى فاتحة القرن التاسع عشر ، كما توج سلفه الأمبراطور شارلمان قبل ذلك بألف عام فى إحدى كنائس رومة وتولى البابا ليون الثالث وضع التاج على رأسه ؛ على أن هذه المظاهر النصرانية والمناظر الوثنية التي ترجع إلى روح العصور الوسطى أيام كان سلطان الكنيسة الروحى يغشى كل سلطة زمنية وتستظل بلوائه الملوكية لتدعم سلطانها الزمنى ، لم تعرفها الملوكية الاسلامية ولم تأخذ بها ولم يلعب المسجد فى هذا الميدان مثل هذا الدور الذي تلعبه الكنيسة فى تتويج ملوك النصرانية ، كذلك لم تعرف الدولة الاسلامية لرجال الدين سلطة خاصة كتلك التى يزاولها الأحبار النصارى فى مثل هذه المناسبات السياسية والقومية .

وعلى ذلك فان البرنامج الذى وضع لتتويج جلالة ملك مصر والذى يقوم على العناصر التقليدية الثلاثة : العنصر الدستورى وقوامه أداء جلالته لليمين الدستورية أمام ممثلى الأمة ، والعنصر الدينى ومظهره أن يؤدى جلالته صلاة الجمعة فى اليوم التالى فى احد المساجد الكبيرة ، والعنصر العسكرى ومظهره أن يقوم جلالته باستعراض الجيش المصرى الباسل فى حفل فخم ، هو فى الواقع برنامج موفق ، يتفق على بساطته مع الروح الدستورية الصحيحة ، ويجانب تلك البدع والرسوم الوثنية التى زعم البعض أنها تسبغ على حفلات التتويج لوناً روحياً خاشعاً ، وتنوه بصفة مصر الاسلامية فى حين أنها تنافى الأوضاع الدستورية والتقاليد الملوكية الاسلامية ؛ بل إن هذا العهد الدستورى المؤثر الذى تقدم به المليك لأمته يوم توليه مقاليد أمورها ، ليذكرنا كيف تمت ولاية جده العظيم محمد على لمصر على يد زعماء الأمة المصرية فى منظر من أعظم المناظر الديمقراطية التي يسجلها التاريخ المصرى

٩ ، محمد عبد الله عنان

عرش الشمس

يصدمه واحد وأربعون قرناً !

للأستاذ عبد المنعم خلاف

حينما أرسلت خيالى يرود لى ما يقع عليه « عرش الشمس » الذي يتبوأه اليوم الفاروق ، من البحر فوق ، إلى البحيرات تحت ، عرفت فى نفسى كلاماً يوحى إلى أن خذ قلمك وسر فى موكب التتويج جندياً يحمى أو شاعراً يغني ! فانه موكب يسير فيه واحد وأربعون قرناً هى كل تاريخ الانسانية الذى وعته ذاكرتها . . وتحتشد فيه الدنيا لرجوع شباب « أمها » فى مَلِك نظيف المادة مكتمل ، واسع الروح قدّيس الحياة ، قد صنعه الله على عينه ، وآتاه البسطة فى العلم والجسم ، واختار له ذلك الاسم الذى يومىء الزمن به إلى تاريخ وقف وتاريخ أقبل ، وحاطه بحكماء أذكياء على علم تام بكمالات النفوس وواجبات الملوك ، وعبّد له طريق الحكم وأزال منه الأشواك ورفعه على عرش لا تخفق فوقه راية أجنبية ، وأعده ليكون ملكا بطلا ومربياً شعبياً وقائد جيل !

وهأنذا فى الموكب أهتف : —

أشهد أن لا إله إلا الله يا مليكي ! فلا أعبدك . . . ولا أنسى بك مَلِكَكَ وبارئك وإلهك . . . كمن فتنوا بعبادة الملوك فى الماضى ، ومن لا تزال فى قلوبهم بقية من هذه الجاهلية فى الحاضر

ولكني أجد فى قلبي سطوة الحب لمناك الذى أخرجه الله على قلوب الناس إخراجاً مفاجئاً فى ظرف غريب ، كما يُخرجُ الفجرَ فتطرفُ له كل عين ، ويتفتح له كل قلب ، وتغتسل الأرض به من الظلام !

ولمناك يا مولاى فى ذهني صورة تمتد امتداد النهار . . . فتقع على الزنجى فى جنوب الوادى ، وعلى الأسكندرى ومن بينهما